

بدايات القصة القصيرة في الجزائر

أ.د. صالح غيلوس - إيمان عريوة
جامعة محمد بوضياف - المسيلة

مقدمة :

شكلت الكتابة محط نظر ثقافات متعددة إلى الحد الذي اعتبرت فيها ميراثه الحقيقي، فترددت مقولات عديدة نحو اللسان والأسلوب هما قوة عشواء، أما الكتابة فهي فعل تضامن تاريخي، ومعنى ذلك أن الكتابة التراث الفكري لأي أمة من الأمم، فهي علامة ذاكرته وتجسيد لهويتها الحضارية، ورمز لرصد تاريخها الأدبي بكل معالمه وحيثياته وحتى تناقضاته، إذ إنه في اللحظة التي تنسحب فيها الوقائع المنظورة والصور المتخيلة بكل ما فيها من طاقة للإفضاء معلنة عن فوضى الشعور والإدراك والوعي، وأنها قاصرة أمام الإفصاح والإخبار، تنصدر الكتابة لتتوب عن تلك الوقائع والملابسات الخارجية وعن كل منطوق باعتبار أن المنطوق غير المتجسد قد يندثر ويضمحل ويتهلل ويتصدع وقد لا يكشف ويظل ولا يدل ولا يوثق تاريخ تلك الأمة، فيصبح بذلك المنطوق أداة التباس أكثر من كونه أداة تدليل وتوضيح، وهذا ما يمنح شرعية الكتابة بوصفها أولا شكلا توأما وناقلا أميناً للتجارب الإنسانية والممارسات الواعية لكل أمة وعلامة دالة على كل تراث يخص الأمم.

فالكتابة ليست وسيلة لتفريغ الاحتشاد النفسي بقدر ما إنها هي التي تصنع الاحتشاد وتؤكد، لأنها فائقة على الحياة وتجاوز لها، بحيث ليست إشارة للجرح بل صناعة مستمرة له، ورصد الفكرة المتسرّبة في ثوب الصمت في عالم الخيال والرؤيا المتأمل، المشكلة لوعينا الصامت وللحظة التجلي الحقة، وإذا ما سلمنا أن الفكرة المنطوقة قد تترك أثرا في نفس المتلقي وتحيله إلى معنى ما، فإن الكتابة لا تكون إلا مجرد صوت لروح تلك الفكرة في الأعماق بوصفها فعلا لغويا، بكل ما يحمله الفعل المادي من دلالات.

لأجل هذا كله يتجلى فعل الكتابة في قوالب إبداعية شتى ووفق خصائص تفرض ما يعرف بأجناس الكتابة (تنميط، الفعل الكتابي)، ولا شك أن القصة واحدة من هذه الأنماط التي استوعبت تجارب الإنسان منذ القدم، وفي مراحل تاريخية متعددة ما جعل منها -القصة- تراثا إنسانيا فاصل تتناقله الأجيال جيلا بعد جيل.

من حيث التأصيل يعد جنس القصة القصيرة منجزا ومعطى من معطيات الثقافة الغربية في بعدها الفني، ظهرت في سياق تاريخي مخصوص ثم انتقلت إلى الثقافة العربية أيضا في سياق مخصوص (المثاقفة، الترجمة...)، إلا أن الفكرة الأساسية التي تروم مداخلتنا طرحها لا تهتم بكل حيثيات هذه الأسيقة وتجعلها صلب موضوعها وإنما تستهدف الوقوف على أهم الاتجاهات للقصة القصيرة في الجزائر من حيث الخصائص الشكلية (المقومات البنائية) ومن حيث الخصائص الفنية (الجمالية)؛ وذلك عبر نماذج قصصية متداولة قراءة، دراسة وتحليلا.

كل ذلك في سياق يقوم على إشكالية مركزية يمكن تحديدها عبر التساؤلات التالية:

هل تعد القصة القصيرة الجزائرية استمرار للنمط القصة العربية القصيرة في الأقطار العربية الأخرى أم أنها تشكل منعرجا مفصليا في مسار تطور القصة القصيرة في الأدب العربي؟، وإذا سلمنا افتراضا أن جنس القصة القصيرة في الأدب الجزائري يشكل نوعا مستقلا بذاته مرجعا، تشكيلا، رؤية، وقيمة ففيما تعين هذا الاختلاف ومن هي الأقلام التي مثلت هذا الاتجاه؟

يرجع كثير من الدارسين نشأة الخطاب القصصي إلى بداية القرن العشرين، فعبد الملك مرتاض يؤصل له بظهور قصّة "فرانسوا والرشيد" لسعيد زاھري، ويعتبرها بمثابة فاتحة الخطاب القصصي الجزائري، واصفا إياها بأنّها أول محاولة لكتابة قصة مكتملة البنية عرفها النثر الجزائري الحديث في سنة 1925 عبر صفحات جريدة الجزائر، إذ يصرح: "إنّ أول محاولة قصصية عرفها النثر الحديث في الجزائر تلك القصة المثيرة التي نشرت في جريدة الجزائر"¹.

أما عايدة أديب فتذهب إلى أن أول محاولة قصصية نشرت هي "دمعة على البؤساء" التي نشرتها جريدة الشهاب في عدديها الصادرين في 28/18 أكتوبر 1926،² في حين يذهب عبد الله ركيبي إلى أن بداية فن القصة القصيرة يعود إلى أواخر العقد الثالث من القرن العشرين وأنها ظهرت أول ما ظهرت في قالب المقال القصصي.³

ويذهب صالح خرفي إلى أن محمد بن عابد الجاللي هو أول من خطّ طريق القصة وأنه أول من كتب القصة القصيرة العربية في الجزائر.⁴

ومهما يكن من اختلاف حول تحديد المرجع الزمني لظهور أول قصة قصيرة في الجزائر فإنّ الظاهر أن تاريخ ظهورها ممتد بين السنوات الثلاثة الأخيرة من العقد الثالث من القرن العشرين وهو رأي جمهور الدارسين لهذا الجنس الأدبي في الجزائر. ولا شك أن ظهورها في هذه الفترة له ما يبرره من الناحية الاجتماعية، لأن تردّي أوضاع الجزائريين المعيشية وتفشي الآفات الاجتماعية جراء الفقر والاستعمار كان باعثا حقيقيا على ضرورة إيجاد قالب تعبيرى يكون أكثر صلة بالمجتمع، وأشجع تعبيرا عن معاناته، وليس ذلك غريبا إذا ما علمنا أنّ هذا الجنس الأدبي أكثر توغلا في مظاهر حياة المجتمع، ولعلّ هذا ما عناه الكاتب الإنجليزي "تشارلتون" حينما أكد صلة القصة القصيرة بحياة الناس معتبرا أن غايتها الحقيقية أن تصوّر الواقع، إذ يقول "إن لم تصوّر الواقع لا يمكن أن تعدّ من الفن"⁵. وهو نفس الموقف الذي قرره الناقد الإنجليزي "والتر الان" حينما اعتبرها أكثر الأنواع الأدبية فعالية في عصرنا الحديث بالنسبة للوعي الأخلاقي" فهي عن طريق فكرتها وفنّياتها أقدر المسالك التعبيرية على الجذب وبسط صور الحياة الإنسانية أمام المتلقي في أبسط حيثياتها وأدق تفاصيلها وفي أغرب ملامحها.

وعلى الرغم من أن مفهومها العام أشدّ صلة بحياة الناس اليومية إلا أن تناولها للواقع وقدرتها في الإحاطة بكل تمظهراته ونقلها إلى القارئ لا يشكّل خاصيتها الجوهرية في العصر الحديث لأن مفهومها لم يعد مرتبطا بالسرد كجنس أدبي حديث بقدر ما صار مرتبطا بمجموعة الأطر الفنية التي تشكلها وبخصائص البناء الفني الذي يميزها عن سائر أنماط القص الأخرى وبقدرتها على تكثيف الأحداث وتقديمها للقارئ كما لو أنها صورة تلخّص حركة الوجود وتقنّن طبائع الإنسان، كما ارتبطت خاصيتها الجوهرية أيضا بقوة تأثيرها وتحقيقها للمتعة الجمالية.

من هنا جاءت أهمية الحديث عن التقنيات اللغوية التي تعتمدها القصة القصيرة في الأدب الجزائري وأهم العناصر

التي توظفها لجلب القارئ والتأثير في مواقفه وسلوكه

وقبل تناول أهم الملامح الفنية للقصة القصيرة في الجزائر وما تعتمد من أساليب القص الحديثة تجدر الإشارة إلى تعدد اتجاهاتها ومنطلقاتها وغاياتها، على اعتبار أن كل اتجاه يوظف الأدوات المناسبة لتصويراته وغاياته، ويتناول المضامين التي تتلاءم ومرجعياته الفكرية ومنظومة القيم التي يحددها تيار الوعي الذي ينتمي إليه.

وعلى العموم يمكن التذكير بجملة من الاتجاهات التي عرفتها القصة القصيرة الجزائرية لعل أهمها:

1/ الاتجاه الإصلاحي: وهو تيار نحت فيه القصة منحة الوعظ والإرشاد والتوجيه، أهم ما تميزت به نصوص هذا الاتجاه هو الاهتمام بالموضوع وبالفكرة أكثر من طريقة إيصالتها، لذلك غلب على هذا النوع المباشرة والتقريبية ولا شك أنه كان متزامنا ومنسجما مع طبيعة المرحلة التي انطبعت بالجهل والفقير والأمية، وأهم النصوص التي مثلت هذه المرحلة نصوص أحمد رضا حوحو والسعيد زاهري وغيرهما

2/ مرحلة القصة الاجتماعية: وهي مرحلة عمد فيها الكتاب إلى تناول الموضوعات الاجتماعية (الهجرة، البطالة، الفقر) ومن أبرز الكتاب الذين مثلوا هذا الاتجاه احمد رضا حوحو عبد الحميد بن هدوقة الطاهر وطار وغيرهم امتزج في نصوصهم الحس الأيديولوجي بالحي الوطني الاجتماعي، وجل الشخصيات التي تقوم بالأحداث هي من صميم الواقع المعيش ومعظم الأسئلة التي تطرحها نصوص هذه المرحلة هي أسئلة من صميم الشخصية الجزائرية التي تبحث عن العيش الكريم.

3/ مرحلة النضج الفني والسياسي: وهي مرحلة تمتد من الاستقلال إلى اليوم، مثلتها أجيال متعاقبة من الكتاب، أهم ما ميزها الوعي الأيديولوجي الذي عرفته المرحلة وانفتاح الوعي على أساليب جديدة في الكتابة أكثر نضجا وأكثر كفاءة في التعامل مع اللغة، من أهم من مثل هذه المرحلة الطاهر وطار مرزاق بقطاش عبد الحميد بن هدوقة السعيد بوطاجين.

أهم الملامح الفنية في قصص عبد الحميد بن هدوقة

تمركز الحدث في البنية الفنية:

ما يميز فنيات القص عند عبد الحميد بن هدوقة هو اعتماده على الحدث باعتباره أهم العناصر الأساسية في القص لما يشكله من ارتباط عضوي مع باقي العناصر الأخرى المكونة لبنية القصة القصيرة عنده، لذلك يمكن اعتبار قصصه قصص حدث في المقام الأول، على أن لا يفهم من هذا أن العناصر الأساسية الأخرى (الزمن، المكان، الشخصيات، الحكمة..) لا تؤدي دورا جوهريا، وإنما المقصد من إلحاق صفة الحدث بنصوصه هو ما يمثله الحدث من هيمنة على مسار السرد من ناحية، ولكونه مصدر القيمة الإبداعية في جل نصوصه من ناحية أخرى، ولعل هذه الخاصية طبعت نصوصه بحسن النسج والانتظام في الانتقال عبر مساحة المسرود عنده، لأن الحدث يحيل إلى الفعل وصاحب الفعل (الشخصية التي تقوم بالدور) كما يحيل إلى المكان وزمان حصول الفعل وكيفية حصوله إضافة إلى طبيعة المضمون، ونظرا لهذا الارتباط بين الحدث وكل هذه العناصر الأساسية في القصة القصيرة عند بن هدوقة، فقد مثل الاهتمام بالحدث قيمة فنية في نصوصه، إذ أنه ينتقي أحداث قصصه من الواقع وينصرف إلى أشد اللحظات تأزما وتعقيدا فيقتنصها، ويجعلها منطلقه في الربط بين الماضي والحاضر، ولعل هذا التداخل بينهما في قصصه يمثل أيضا خاصية مميزة لنصوصه، إلا أن اهتمامه بالحاضر هو ما يشكّل محفز الأساس في بعث الماضي بكل حمولته المساوية كما لو أن الطابع المساوي الذي يميز الأحداث في قصصه والمآل التعيس الذي تنتهي إليه شخوصه في القصة هو نتيجة حتمية للماضي المثقل بالمعاناة، ولا شك أن هذا مظهر يوجب الحركة الداخلية

في النفس لاسيما لدى المتلقي، ولا تخلو مجموعاته القصصية من هذه الميزة عبر تطور مسار السرد عنده، ولا نبالغ إذا قلنا بأن هذه الميزة الفنية هي ما يشكّل أهم ملامح شخصية عبد الحميد بن هدوقة الكاتب، ويمكننا التذليل على ذلك بالرجوع إلى مجموعته القصصية "الأشعة السبعة"⁶ ذات أحد عشر قصة، المتفاوتة في تواريخها، والتي تغطّي مساحة زمنية تمتد على مدار الثورة التحريرية، حيث يمثل فيها الحدث جوهر الإطار الفني للقصة في سياق نزعة الالتزام بقضايا المجتمع التي ظلت صفة ملازمة للكاتب، إذ ظلت الأحداث عبر قصص مجموعته السابقة الذكر هي المحدّد لطبيعة الوضع الإنساني المعقد للجماعة الفقيرة التي تبثّى القاص قضاياها، فتراوحت الأحداث بين مضامين "الهجرة" بوصفها هروبا من الفقر وسعيا إلى واقع أفضل و"الأرض" وكل ما يرتبط بها على اعتبار أن الماضي يمثل رحلة نضال لتحرير هذه الأرض من قوى الاستعمار الغاشم، و"الزواج" بما يمثله من حمولة عاطفية ومن ارتباط بالأرض بجامع أن كلا منهما يؤسّس لمعنى الانتماء والاستمرار، وكل منهما يكشف عن قدوم لحظة الانطلاق والتأسيس لنمط حياة جديدة، فإن كان حلم استرداد الأرض يقضي بضرورة تعميمها والتمتع بحق الانتفاع بخيراتها في كنف الحرية، فإن الزواج أيضا علامة سيميولوجية على انبثاق نمط جديد لإعمار الحياة والتمتع بدفء الأسرة في كنف الحرية، بهذا المنطق تتأزّر معظم أحداث المجموعة القصصية السابقة، لبناء الرؤية القصصية لدى عبد الحميد بن هدوقة، وهي رؤية تتخذ منطلقها من الواقع ومن حس الالتزام الذي يتمتع به بن هدوقة -كما أسلفنا- وتتأسس هذه الرؤية على الحدث بوصفه بؤرة العمل القصصي عنده.

ولأن الحدث مرتبط بالشخصية فإن بن هدوقة جعل من الشخصية المحرك الفعال لتطور الأحداث عبر مسار القص، وبذلك شكلت الشخصية عنده ملمحا فنيا ذا أهمية كبيرة في التشكيل الفني للقصة القصيرة عنده.

الشخصيات:

ما يميز الشخصية في نصوص بن هدوقة أنها ابنة بيتها تنطق بلسان حالها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنها شخصيات متأزّمة، ويكاد التأزم يشكّل الصفة البارزة فيها عبر كل مجموعاته القصصية، وقد يرجع هذا التأزم إلى معاناة الكاتب ذاته، ومبرّر ذلك أنّه يختفي وراءها لا سيما في سياق الحديث بلسانها، بصيغة المتكلم لا بصيغة الغائب، ما يشعرنا برغبة في تفرغ الحمولة الوجدانية للكاتب عبر شخصياته، يضاف إلى ذلك أنها شخصيات تلازمها التعاسة في أوج اللحظات التي تشي بنوع من السعادة والانفراج، ولعل شخصية عابد في قصة "ثمان المهر" من مجموعة الأشعة السبعة تقدم هذه الصورة فبعد قرر البطل الهجرة تحمل مشاق الحياة وعذاب الغربة للحصول على المهر الذي اشترط في زواجه وبعد أن تحقق الحصول على المهر بعدة رحلة العذاب ومرارة الغربة، وبعد ظهور تباشير الانفراج أمام عابد يتعرض لحادث يفقده حياته فيحضر المهر ويغيب "عابد" في مشهد مأساوي.

توظيف الثقافة الريفية:

تكشف لغة بن هدوقة عن تشبّعه بالثقافة الريفية، المشكلة لمنبع ثقافته ومصدر رؤيته، فهي مادته الخام في فعل القص عنده، فكلّ ما يتحرك في فضاء السرد لديه يحيل على بيئة الريف إن مظهرها (طبيعة) أو قيمة فالشخصيات تكاد تحكمها العقلية الريفية ووصفها لا يتأتّى للكاتب إلا ضمن إطار بيئة الريف، ولعلّ الرجوع إلى بعض المقاطع من نصوصه القصصية يمكننا من تبين ذلك من وصفه لأحدى شخصياته " فتاة ريفية تثبت في قرية تطوّقها الجبال كالشجرة مسها الحرّ

والقرّ في أيام ظهور الشمس وبزوغ القمر، كيف يمكنها أن تتصور أنّ بلادها لم تخلق بعد وهي تحيا بين أحضانها وتمشي فوق أرضها؟ لكن ماذا يهمها أن تفهم؟ إنها ترى أشجار اللوز وقد تلحّفت بلحاف أبيض شفاف من الزهر الصغيرة الجميلة وتسمع الأغاني العدية التي لا تنتهي.. "وفي قصته "ابن الصحراء"⁷ يحيلنا وصفه للشخصية على جمال بيئة الريف التي نشأ فيها البطل وتشكّل وجدانه بصفتها، فهو الذي "رضعت عيناه النجوم وارتوى بنورها قبل أن يرتوي بحليب أمه وشرب الحرية في أحضان الصحراء الحنون قبل أن يعرف اسم الماء، يختار أن ينام في خيمة تطوّقها الأفاعي والعقارب على أن ينام في بيت من حجر، لا شعاع يقتحمه ولا نسمة تتسلل إليه".

إن حضور بيئة الريف كما هي عليه من أصالة وصفاء في المقاطع السابقة يشي بحس رومانسي يمتزج مع المنحى الواقعي الذي طبع شخصية بن هدوقة، ويؤكد تجذره الواقعي من خلال امتزاج روحه بنبض الريف، ومهما يكن من أمر فإن ثقافته الريفية محدّد من محددات البنية الفنية في نصوصه القصصية القصيرة.

خاتمة

وفي الأخير يمكننا أن نرصد أهم النقاط التالية:

عدم الفصل النهائي في بدايات القصة الجزائرية وذلك مرده التحفظ من طرف بعض النقاد في إعطاء تاريخ محدد ومن أمثالهم عبد الله الركيبي في مؤلفه القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر على عكس عبد المالك مرتاض و عايد أديب بامية التي أشارت إلى أن بداية فن القصص في الجزائر كانت سنة 1925، وهذا ما عرضت إليه في كتابها تطور الأدب القصصي الجزائري 1967/1925 منوهة على اناول قصة جزائرية قصيرة كانت دمعة على البؤساء لصاحبها علي بكر السلامي التي تكفلت الشهاب بنشرها في جزئين في عددين 28/18 أكتوبر 1926.

إلى جانب هذا إن القصصيين الجزائريين قد اهتموا بأهم الموضوعات التي شغلت الساحة الجزائرية حين لامست واقع شعبيهم لاسيما الفترة الاستعمارية ومآلها السياسي لتكون بذلك انعكاسا حقيقيا لما يعايشه ويعاصره المجتمع الجزائري بكل قضاياها الراهنة آنذاك.

أيضا لا يمكننا في الأخير الوقوف على حيثيات بداية القصة القصيرة الجزائرية وتطورها على هذه الفترة الاستعمارية بالذات لاسيما عدم وجود مصادر في المرحلة ما بعد الاستقلال ولهذا الأمر اكتفينا بها ونوهنا على ما جيء فقط في هذه الفترة دون غيرها.

يتعيّن مما سبق من خلال الجانب التطبيقي الذي اشتغلنا عليه من خلال الأعمال القصصية لعبد الحميد بن هدوقة أن الحدث والشخصيات والثقافة الريفية من أهم الملامح المشكّلة للأطر الفنية للقصة القصيرة عند بن هدوقة، وهي تشكّل نهجا مستمرا في مساره القصصي التقليدي والتجديدي جنبا إلى ملامح أخرى تتزاحم في تشكيل فسيفساء المشهد القصصي عنده، وقد أثرتنا الحديث عن هذه الملامح الثلاثة باعتبارها المحركات الأكثر فعالية في الطاقة السردية لعبد الحميد بن هدوقة.

الهوامش:

- ¹ - شريط أحمد شريط، الفن القصصي في الأدب الجزائري المعاصر ص:64 عن عبد الملك مرتاض فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954
- ² - عايدة أديب، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967، ديوان المطبوعات الجزائرية 1982
- ³ - عبد الله الركيبي، القصة القصيرة الجزائرية.
- ⁴ - صالح خرفي صفحات من الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1972، ص: 211
- ⁵ - ه، ب، تشارلتون، فنون الأدب، تعريب زكي نجيب محمود، لجن والنشر والتأليف والترجمة، مصر 1959، ص:160
- ⁶ - عبد الحميد بن هدوقة، مجموعة الأشعة السبعة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- ⁷ - عبد الحميد بن هدوقة، ابن الصحراء - مجموعة الأشعة السبعة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981

قائمة المراجع

- شريط أحمد شريط، *الفن القصصي في الأدب الجزائري المعاصر*، عن عبد الملك مرتاض فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954
- صالح خرفي، *صفحات من الجزائر*، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1972.
- عايدة أديب، *تطور الأدب القصصي الجزائري 1925- 1967*، ديوان المطبوعات الجزائرية، 1982
- عبد الحميد بن هدوقة، *ابن الصحراء - مجموعة الأشعة السبعة*، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981
- عبد الحميد بن هدوقة، *مجموعة الأشعة السبعة*، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- عبد الله ركيبي، *القصة القصيرة الجزائرية*.
- ه، ب، تشارلتون، *فنون الأدب*، تعريب زكي نجيب محمود، لجن والنشر والتأليف والترجمة، مصر 1959.